الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: مدخل إلى الأدب المغاربي باللغة الأجنبية

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الخامسة: رواية ابن الفقير لمولود فرعون

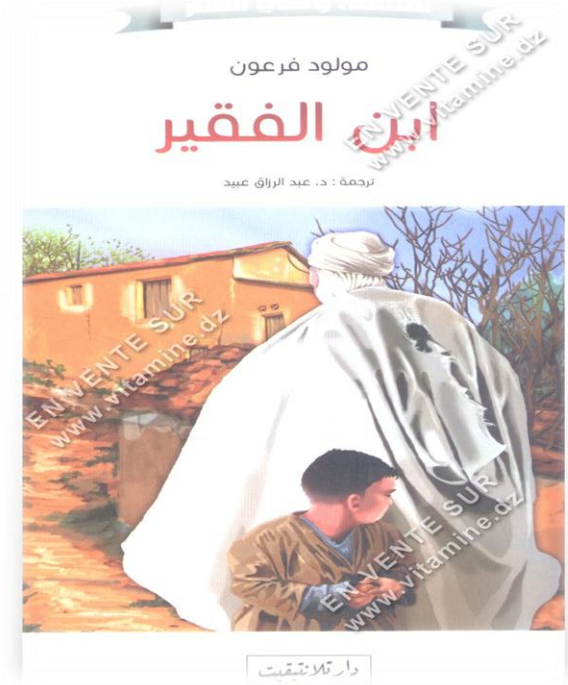

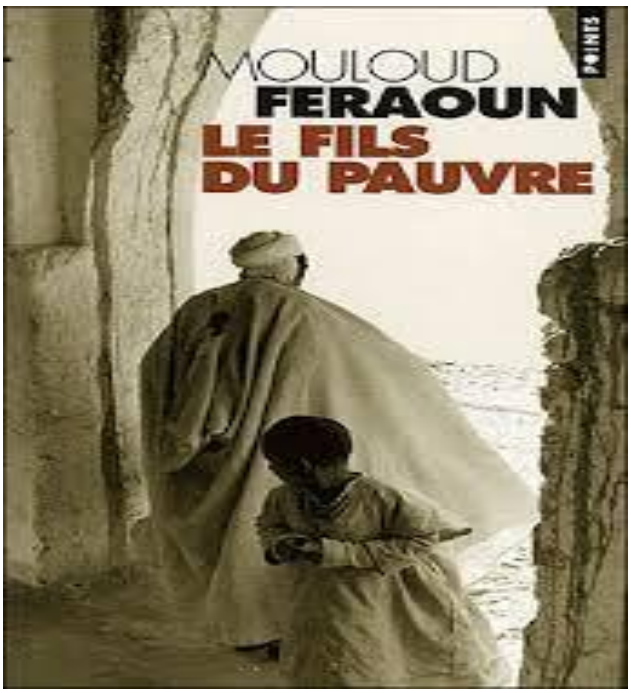

قام الكاتب الجزائري مولود فرعون في رواياته بتصوير الحياة اليومية للمجتمع القبائلي بكل خصوصياته؛ إذ كان يهدف إلى نقل الروح القبائلية لذلك المجتمع في جميع رواياته التي نذكر منها ابن الفقير le fils de pauvre ورواية الأرض والدم la terre et le sang . وتعتبر هذه الروايات الأكثر شهرة على الإطلاق للكاتب؛ حيث تمت ترجمتها إلى حوالي 25 لغة عالمية لما تضمنته من أفكار وقيم إنسانية ومن بين تلك اللغات نذكر: الألمانية والروسية والبولونية والعربية طبعا.

ابن الفقير سرد سير ذاتي:

يقول مولود فرعون: « لقد كتبتُ "ابن الفقير" أثناء سنوات الحرب المظلمة على ضوء مصباح تقليدي. في هذه الرواية، يمكن القول إنني وضعت أفضل ما عندي ». وعن سؤال طرحه الكاتب والصحافي الفرنسي موريس مونوابيه (1920 – 2016)، عن اعتبار هذه الرواية سيرة ذاتية، يجيبه: « نعم، أنا متمسّك، وبشكل كبير، بهذا الكتاب؛ أولاً،

لكوني لم أكن آكل إلا عندما كنت أحسّ بالجوع. زيادة على ذلك، جعلتني هذه الرواية أنتبه إلى إمكاناتي. فالنجاح الكبير الذي حقّقته شجّعني على المضي قُدماً في كتابة روايات أخرى».

يعود ضمير المتكلم "أنا" الذي يأخذ على عاتقه السرد، في الجزء الأول، الذي يحمل عنوان الأسرة، إلى فورولو منراد، الشخصية الرئيسية في الرواية. فهل يمكن أن يكون ف. منراد نِدًّا لمولود فرعون، كاتب الرواية نفسه؟ هناك العديد من الدلائل والحجج التي تدعم هذه الفرضية.

إن الاسم الحقيقي للشخصية الرئيسية، الذّكر، مخفي في النص فهو استثناء في المجتمع القبائلي، أطلقته الجدّة لحماية هذا الولد الذَّكَر الذي طال انتظاره من العين السيئة وذلك ظاهر في الإشارة السيميائية لفعل effer أي: أخفى. ويعطي هذا التأكيد والتدقيق للنص نبرة الحقيقة، أو أثر الواقع. لكن ذلك لا يمنع من قراءة هذا التأكيد على أنه إشارة من الكاتب الذي اخترع بإرادته ووعيه وبقرار منه هذه الطرفة أو الحكاية ليختبئ وراء هذا القناع.

إذًا فورولو منراد هو السميّ شبه الخالص لمولود فرعون، مثلما فعل كُتاب قبله وسيجد القارئ اليقظ دليلا آخر، أكثر احتجابا. في بداية من الفصل الثالث سيقدم أفراد عائلة فورولو تحت اسم "أولاد (آيت) شعبان": "ولست أدري البتة لماذا". هذا هو الاسم الحقيقي، المستعمل في القرية الأم، والذي يطلق على عائلة الكاتب، لأن فرعون كما يوضح مولود للكاتب الفرنسي إيمانويل روبليس في رسالة مؤرخة في 5 كانون الثاني/يناير 1953 "هو اسم سجله موظفو الشؤون الأهلية في الحالة المدنية".

وبعيدا عن مسألة الاسم، هناك خصائص شخصية شبيهة بخصائص الكاتب: نفس الأصول الفلاحية، نفس المسار الدراسي: حاز شهادة الدروس، اجتاز امتحان الحصول على المنحة، ثم ولوج مدرسة تكوين المعلمين في العاصمة. والنتيجة تكون هي أن ليس هناك شيئا مختلفا أو متخيلا في النص.

الخصوصية الثقافية في رواية ابن الفقير:

لم تخل الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية من مظاهر الثقافة الجزائرية وتجليات الموروث الشعبي فيها، فقد جرى غالب تصوير الفرد الجزائري إلى جانب بؤسه وفقره. وعلى الرغم من تشارك الجزائريين والمعمرين العيش على الأرض نفسها، ولكن تمسك كل واحد منهما بطريقة عيشه وعاداته وتقاليده التي حالت دون الاختلاط والانصهار في كتلة واحدة.

1-الخصوصية الإثنوغرافية: *

* **الإثنوغرافيا** (**L'ethnographie**) هي دراسة وصفية لأنشطة جماعة إنسانية معينة، سواء أكانت جماعة بدائية تقليدية أم جماعة معاصرة ومتمدنة ، بالتركيز على بنيات القرابة، و التقنيات المادية، و المعتقدات الدينية، والتنظيم المجتمعي، واستعمال آلات العمل، والاستثمار في الأرض.

تندرج أعمال مولود فرعون ضمن أطر الرواية الإثنوغرافية*، حيث يعمد إلى وصف المجتمع مُبْديا اهتماما كبيرا بوصف دقائق الأمور وخاصة منها المتعلقة بالعادات والتقاليد على لسان بطل الرواية فورولو، ويظهر ذلك من بداية الرواية أين يصور الكاتب الولد فورولو ومكانته في البيت التقليدي الذي يسيطر عليه العرف والأسطورة والتقليد الجاري المحافظ « ولدت في السنة المباركة قبل قرض فبراير الشهير الذي أهلك عجوزا عند ذرى الجرجرة ومسخها حجارة والذي ما زال إلى الآن يثير هلع الذين بلغوا الثمانين من القبائليين. ولما كنت أول مولود ذكر في أسرتي صممت جدتي دون تردد على أن تسميني فورولو (من إفر أي أخفى) ومعنى ذلك أن لا أحد يمكنه أن يراني بعينه الطيبة أو الشريرة حتى ذلك اليوم الذي أعبر فيه بنفسي على قدمي عتبة دارنا ».

يصر الكاتب على مقاطع يؤكد فيها على ظاهرة إيمان الناس بمعتقدات معينة وتجاوب فئات من المجتمع مع أباطيل الشعوذة وترهات عمد الاستعمار بسياسة التجهيل والتهميش إلى زرعها بل ترسيخها في الأذهان بغية إغراق الفرد الجزائري في البؤس الدائم والشقاء الذي لا ينتهي حتى يستولي عليه الجهل ويغفل عن التفكير في الوسيلة التي تخرجه من بوتقة الاستعمار والاستغلال والاضطهاد، ومن المشاهد التي صورها فورولو من اعتقادات سبب جنون خالته « كانت أمي تقول لنا أن ذلك بسبب اكتمال البدر كانت توجس خفية من عودة نوبة الغضب إليها عند مطلع الهلال الجديد أما جارتنا فكن يزعمن أن الجن يعلمون خالتي الشعوذة، وأنها لن تلبث أن تتنبأ بالغيب وأنها ستكسب عندها ما يمكن الانفاق على الأسرة بدون حساب. لا أملك سوى أن أعترف بأن أبي كان يسترق السمع إلى هذه الحتميات بأذن راضية لشدة قسوة الحياة معنا. أما أمي فكانت تثور ثائرتها لمجرد التفكير في الحصول على أي إيراد من مثل تلك المصيبة لم تكن تريد أن تصبح إحدى بنات أحمد مشعوذة تقرأ الفأل ».

2-الخصوصية الاجتماعية:

إن نص مولود فرعون مليء بالعادات الاجتماعية وبالمعتقدات الشعبية حتى يصح تسميته برواية قرية أو منطقة أو مجتمع.

أ- وصف الريف:

إن الحضور اللافت للريف في الرواية لم يأت من فراغ ولم يكن لغوا لا طائل منه. بل إنه يمثل ركنا مهما من حياة المؤلف، إذ أنه يمثل ركنا مهما من حياة المؤلف، وعندما نعود إلى ابن الفقير نجد أن تعلق الكاتب بقريته يصل إلى حد

الإثنوغرافيا هي دراسة ميدانية وتحليلية للعادات والقيم والتقاليد والأعراف لجماعات سكانية محددة. وقد ارتبطت هذه المنهجية، قديما، بدراسة الشعوب البدائية. ومن هنا، فالإثنوغرافيا- حسب حسين فهيم- " هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. نقلا عن **جميل حمداوي** "مقومات البحث الإثنوغرافي".

* **الرواية الإثنوغرافية**: هي الرواية التي تعتمد على الوصف الدقيق للحياة اليومية والعادات والتقاليد .

تذكره أسماء الأماكن ووصفها بدقة لا متناهية. يقول:« إن نهر السباو أو روافده قد تلقى أحيانا في سهل تيزي وزو وعلى ضفافها الفسيحة الناعسة جثة متورمة » ويقول في موضع آخر: « أملو هو غرس الزيتون الذي خلفه أحمد لبناته الثلاث».

إن الريف أو القرية بالنسبة لمولود فرعون يمثلان الهدوء والسكينة والنفس المستقرة خاصة بعد أن سكن المدينة ووجدها في حالة حر وخراب ومداهمات شرطة واغتيالات.

ب– الأسرة:

تمثل الأسرة معلما بارزا في رواية ابن الفقير، فالكاتب وهو يسرد روايته يستأنف حديثه الاسترجاعي يقدم صورة عن طفولته وبالتالي ينقل صورة عن أسرته التي نشأ في كنفها وترعرع بين أحضانها، يستنطق من خلالها المستوى المعيشي والثقافي، ومن المشاهد التي عرفت بها الأسرة الجزائرية عامة مشهد التعاون رغم الظروف الصعبة، وفي هذه الرواية يطالعنا الكاتب بقصة خالته المجنونة التي كفلتها عائلته « إن خالتي أصبحت تثير القرف والاشمئزاز كانت تخشى الماء كأنه النار، ولا تريد أن يسرح أحد شعرها، وتقضي حاجتها الطبيعية في مكانها .. كانت تزداد سمنا ونضارة وصوتها يصبح جهيرا أما أمي فكانت عكس ذلك تزداد ضنى ويجف عودها ».

ومن العادات التي انتشرت في بلاد القبائل وغير عادة التويزة التي تمثل مد يد العون والمساعدة للأقارب والجيران من أجل إنجاز أعمال شاقة وهي ممارسة تطوعية مجانية تقوي أواصر المحبة بين الأفراد، ومن أمثلتها اجتماع النسوة في بيت العروس لغسل الصوف أو صنع الطعام الذي يقدم في العرس.

وإذا أمعنا النظر في رواية ابن الفقير نلاحظ بأنه وفي كل مرة يتطرق فيها الكاتب إلى الأسرة، يتعرض بالوصف لظاهرة اجتماعية متفشية في مجتمعنا وهي الفقر فلا نكاد نجد أسرة على أحسن حال من أسرة أخرى، وقد كان الشعب كله يعاني البؤس بسبب السياسة الجائرة للمستعمر « إن شعب القبائل لم يكن غارقا في الوفرة ».

ج– الهجرة:

يسرد مولود فرعون واقعة الهجرة التي عايشها من خلال شخص والد فورولو، الذي هاجر نحو فرنسا وخلفه وراءه هو والعائلة يعيشون مأساة الاغتراب، ثم إن غياب والده فرض عليه أن يكون أكثر مسؤولية من خلال الأعمال اليومية التي كان يقوم بها.

تحدث مولود فرعون عن والد فورولو وتعرضه لحادث خطير في مكان عمله، إذ راح يسأل صديق والده العائد من فرنسا عن أبيه ورسالته إليهم « هل سلمك رسالة ؟ هاتها

- هي في جيبي لتأتي أمك أولا، أسرع

جاءت أمي على عجل، قال لها الرجل:

- نانا فاطمة أولادك محظوظون جذا قدمي قربانا آخر إلى قبة القرية لقد كاد زوجك أن يهلك لكنه الآن قد نجى فلا تخشي شيئا.
- وكفهر وجه المرأة المسكينة وابنها من الشحوب»

هذه هي الغربة في زمن الاستعمار إذا نجى المهاجر من خطر الموت المحدق به، فإنه عرض حياته لخطر أكبر قد لا ينجو من شراكه وهو الذوبان في المجتمع الفرنسي.

خاتمة:

إن الأدب الجزائري الذي اتخذ من اللغة الفرنسية أداة للتعبير ما هو في حقيقة الأمر إلا أدب جزائري له حضوره في نقل الواقع الجزائري السياسي والاجتماعي والثقافي، ومولود فرعون في روايته ابن الفقير قام بتصوير الحياة اليومية للمجتمع القبائلي بكل خصوصياته.

المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- محمود عبد الغني: من يذكر نجل الفقير لمولود فرعون.
- جميل حمداوي: مقومات البحث الإثنوغرافي.
- بوزيد مولود: الخصوصية الثقافية في رواية ابن الفقير.